

أمة الإسناد

بقلم: احمد الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمر بالأمانة وأداء الحقوق، والصلاة والسلام على نبيه الأمين الصدوق، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن البخاري رحمه الله تعالى حين أمضى سنين طويلة من عمره في جمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وفق قواعدَ شرعيةٍ منضبطة: كان كذلك يؤضُّلُ فيها لعلم الإسناد والتوثيق، مستنبطًا إياه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتلقاه علماء السلف بالقبول والاستحسان، وأضلوا لعلم الجرح والتعديل وعلوم الرجال والأسماء، وهذا الانضباط كله يساعد على حفظ العلوم، ويمنع الظلم، ويدحر الشائعات والقيـل والقال؛ إذ سيكون لكل خبر مستند؛ يؤكِّد صدقه، أو يكشف كذبه، فلا يستطيع أحد أن يقولَ أحدًا ما لم يقله، ولا أن يفتري عليه، ولا عجب أن يكون كل هذا الانضباط في ديننا العظيم؛ فهو دين العلم، دين الأمانة وحفظ الحقوق. والإسناد ميزة مهمة من مزايا وخصائص هذه الأمة، ونلاحظ أن قصائد وأعمال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، بل وكثيرًا من أسئلتهم أيضًا؛ وصلتنا مقرونة بأسمائهم رجالًا ونساء، سواء بسواء، دون نكير من النبي صلى الله عليه وسلم، بل على العكس؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يفخر بهم ويشجعهم، ويخبر أن أشعارهم أوجع للكفار وأشد عليهم من ضربات السيوف. وعلى نهج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم؛ سار السلف الصالح؛ فتلك روائع حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وقصائد الخنساء، وفقه عائشة، وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وتلك كنوز ابن تيمية، وكتب ابن القيم، وفقه الأئمة الأربعة، وغيرهم وغيرهم رحمهم الله كلهم، جميعهم وصلتنا أعمالهم مقرونة بأسمائهم وسيَر حياتهم، دون أن يخطر في بال أحد منهم أن يسرق نتاج أحد، أو يعرضه مجرَّدًا عن اسمه، كيف لا؟ والله تعالى يقول: {ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين}، ويقول جل جلاله: {ومَن يغفل يأتِ بما غلَّ يومَ القيامة}، وهل بعد كلام الله تعالى كلام؟ حاشا وكلا، اللهم لا تجعل في أعناقنا حقًا لمسلم ولا مسلمة.

ويجدر بنا - ونحن الآن جميعًا نعمل على إعادة أمجاد ديننا السامي - التشبُّثُ بهذه الميزة الإسلامية العظيمة، دون أن نزاحم أعداءنا في محاولاتهم البائسة لطمسها.

اعتراض:

نسبُ الأعمال لأصحابها قد يكون دلالة على التكبر والفُور، وحب الشهرة والرياء، أو على الأقل وسيلةً إلى حصول ذلك!

الجواب:

سبحان الله! أشققتَ على قلب أخيك؟! إن تلکم الأمور: خفيّةً باطنة، لا يعلم بها ولا بالنوايا إلا عالم الغيب والشهادة، ولا يمكن لأحد الشعورُ بها إلا بقرينة: مِنْ قبيل الصّلف في معاملة المسلمين، أو الاستكبار عن مساعدتهم، أو كتم العلم عنهم.

❧ أما مجردُ كون المرء صاحبَ علم أو موهبة: يجعله متكبرًا؛ فتلكم هي الغيرة المذمومة، التي تجعل صاحبها يقع في الظلم والافتراء، وهي التي أودّت بإبليس إلى الطرد مِنْ الجنة بل وَمِنْ رحمة الله تعالى، والعياذ بالله؛ فإن كان أخوك متكبرًا فعلاً؛ عاقبه الله على ذلك، وإن لم يكن كذلك: عاقبك أنت على ظلمك وسوء ظنك؛ إذ {إن بعض الظن إثم}، ومثل هذا الغيور يُنصَح بتقوى الله، ثم باستكشاف خبايا نفسه ومزاياه؛ إذ أودَعَ الله تعالى في كلّ منا مواهبً وقدراتٍ، ولكن مِنَ الناس دُؤوب عامل، ومنهم كسول خامل، ولكل مجتهد نصيب.

❧ ومجردُ إلحاق صاحب العمل اسمَه بعمله: ليس دلالة على أي أمر سلبي، بل هو حقه الفكري الذي يكفله له الشرع ذاته، أم لعلّ أصحاب هذا الاعتراض يرمون السلف الصالح مِنْ الصحابة والتابعين بهذه الاتهامات- خاصة وأنهم كتبوا بأسمائهم الحقيقية لا المستعارة الوهمية-؟! معاذ الله، ولسنا مثلهم طبقًا في الفضل والخير، لكن واجبنا أن نقتدي بهم؛ فهذا الاقتداء هو أحد وصايا النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان الإسناد شرًّا أو وسيلةً إلى الشر: لَمَا سبقونا إليه، بل لَكان النبي صلى الله عليه وسلم نهى صحابته عنه، وهو الذي أخبرهم أنه نهاهم عن كل شر.

اعتراض:

لطالما انتكس قوم كانوا أهلَ علمٍ وأدبٍ بل وسابقةٍ جهاد، فيُخشى على المعاصرين أن ينتكسوا كذلك، ويتبعهم في ذلك مَنْ كانوا يتابعونهم!

الجواب:

الرد ها هنا على عدة وجوه:

❖ أولها: قال الله تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }؛ أي لا يجوز أن نحملَ أحدًا ذنبَ أحد، ولو كان ذنبَ أقرب الناس إليه، فما بالناس بأن نحمله ذنبَ عدوّه المنتكس المرتكس؟! هذا حسب قواعد علم أصول الفقه: قياسٌ بالأولى.

لا سيما أن أولئك المنتكسين ما زالوا يصلون ويجولون!! أي أن مخالفة السلف والسعي في إماتة علم الإسناد: لن تمنعا المنتكس من الانتكاس، بل لربما استغلّ ونسب لنفسه أعمالَ غيره- من غير المنتكسين- ليشوّش على الناس، ويزعم أنه هو صاحبها وتراجع عنها!! فهنا يقف علم الإسناد والقرو للمصادر: له بالمرصاد بعد توفيق الله تعالى، ويمنعه من الكذب والتدليس!

❖ والأمر الآخر: هل يجوز لأحد أن يسوّغ لنفسه تسوّر علم الغيب، والزعم بأن هذا وذاك سينتكسون؟! قال تعالى: { لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ }، قالها للنبي صلى الله عليه وسلم، فما بالناس بمن هم دونه عليه الصلاة والسلام؟! بل مَنْ يدري؟! لربما ثبتوا هم وانتكس مَنْ يخاف عليهم الانتكاس، هذه غيبات لا يعلمها إلا الله، الذي نضرع إليه سبحانه أن يثبتنا جميعًا حتى الممات.

❖ وثمة ملاحظة مهمة: أن الغاية في الإسلام لا تبرّر الوسيلة، ولا يجوز أن تظلم أخاك في الوقت الحالي، وتبخسه حقّه- في حين يتفاخر الكفر بكوادره التافهة الشريرة-؛ خوفًا عليه من أمر مستقبلي، قد يحدث أو لا يحدث، بل قد تقع فيه أنت دونه؛ إذ لا تؤمن على حي فتنة، وهذا يشمل الأحياء أجمعين، فتأمل.

بل واجبنا أن نبذل كل جهودنا في خدمة ديننا ودولتـه، ونحتسب الأجر في الحز والتحريض والتذكير، ونغيظ الكفار بأبطالنا وعلمائنا وأدبائنا؛ قال تعالى: { وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }.

﴿ثالثًا: مَنْ قَالَ إِنَّ دِينَنَا دِينُ أَشْخَاصٍ، نَتَّبِعُهُمْ اتِّبَاعًا أَعْمَى كَالْخِرَافِ دُونَ وَعْيٍ أَوْ تَفْكِيرٍ! مَنْ قَالَ إِنَّ اتِّبَاعَنَا حَتَّى لِقَادَاتِ الْجِهَادِ: هُوَ بِسَبَبِ أَشْخَاصِهِمُ الْكَرِيمَةِ حَفَظَهُمُ اللَّهُ وَتَقَبَّلَ شَهَادَتَهُمْ؟!﴾

إنما ديننا دين دليل ومنهج، نتبع من خلاله قياداتنا، ونأخذ فيه أقوال مشايخنا، ونوافق بسببه مضمون كلام كل متكلم، بمعنى آخر: مَنْ خالف الشرع نبذناه، وَمَنْ قال بغير الحق أجمناه؛ إذ ما كنا لنتبع أحدًا إلا لموافقته للحق، هذا هو ديننا. وآية ذلك: أَنْ نَبْذَ أَهْلُ الْجِهَادِ الْمُنْتَكِسِينَ، واتخذوهم وراءهم ظهرًا، ومنهم على سبيل المثال: المنتكس الظواهري، الذي لم تُغْنِ عنه سنوات طويلة في الجهاد، ولم تنفعه لطميّاته وتبجّحه بلحيته التي شابت في هذا الطريق، وهو يكاد يتوسل أن يُتَّبَعَ في الباطل، ويُجَارَى في حقه على دولة الخلافة أعزها الله!

وصحيح أنه تسبّب في وقوع فتنة، ولكن ذلك لم يكن بسبب شخصه الكريم ولا عمامته إلخ هذه المعلّقة، بل كان بسبب خداعه وإخفائه للحقائق، التي حالما انجلت وتبيّنت؛ ازداد الناس نفورًا منه وازدراء له، ولم يردّد كلامه إلا حثالة المرتدين، الذين لو قال الظواهري نفسه لهم: "إن التدخين حرام"، فأظنهم سينفثون الدخان في وجهه، ثم سيقولون له: "ثراك صدقت نفسك، وظننت أننا فعلًا نعتبرك شيخنا ونأخذ بكلامك؟! ما أنت إلا أداة نستعملها استعمالًا في التعبير عن حقنا ضد المجاهدين، ثم نرميها غير مأسوف عليها، فلا قيمة لك أيها الخرف!". نعم؛ فالانتكاس يهوي بصاحبه، كما أن العلم والجهاد يرفعانه! نسأل الله العافية والثبات والسلامة.

وإن عبيد الله بن جحش كان مسلمًا رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وأمن به، بل وهاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه، ثم حين ارتدّ وتنصر؛ لم يضرّ إلا نفسه، ولم يؤثر حتى في أم حبيبة رضي الله عنها، فضلًا عن أن يضرّ بالإسلام ذاته!!

والأمثلة كثيرة سواء من شواهد التاريخ، أو واقعنا المعاصر؛ إذ الإسلام لا يضرّه انتكاس ضال، كما لا يؤثر فيه موت فاضل، وقد بقي شامخًا منتصرًا برغم موت النبي صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق، فما بالنا بمنّ دونه؟! فلنكن أكثر ثقة بوعد الله تعالى بانتصار الإسلام ودولته، التي تمضي بنور الله تعالى وتوفيقه، دون أن تلتفت لمن خسروا أنفسهم بحربها، ولم يضرّوها بشيء فضلًا من الله ومثّة. هذا ولا أخال أحدًا يمانع في نشر بعض أعماله دون اسم، أو حتى باسم آخر، ذلك لا حرج فيه بإذن الله بشرط ألا ينوي مخالفة السلف، لكن أن يصبح هذا هو الأصل، بحيث يُرمى مخالفه في نيته وإخلاصه؛ فذلك لا يصح، وديننا دين دليل، لا يمكن لأحد أن ينكر على أحد دون مستند شرعي، ونلاحظ من خلال ما سبق -وهو قليل لا يفي بحق هذا الموضوع الجليل، ولكنه جهد المقل-: أن الأدلة الشرعية تؤيد الإسناد بل وتدعو إليه، فتأمل.

وإن أعجزك أن تعرف صاحب هذا العمل أو ذاك؛ فلا أقلّ مِنْ أن تبين أنه منقول؛ تبرئة للذمة، ودفعًا لشبهة السرقة الفكرية.

اللهم أخلص أعمالنا ونوايانا لوجهك الكريم، وتقبل منا يسير العمل، واعفُ عن كثير الزلل، وثبتنا على طريق الحق حتى نلقاك وأنت عنا راضي، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، بل أشغلنا جميعًا بطاعتك، واجعلنا يدًا واحدة ضد أعدائك أعداء الدين، آمين، والحمد لله رب العالمين.